دكتور
أبو زيد شلبى
أستاذ الحضارة بكلية اللغة العربية
جامعة الأزهر - سابقاً

الندم والتوبة

وأثرهما فى تقويم السلوك وتهذيب النفوس

الناشر
مكتبة وهبة
١٤ شارع الجمهورية - عابدين
القاهرة - ت - ٣٩١٧٤٧٠

الطبعة الخامسة

١٤١٣ هـ - ١٩٩٢ م

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُولَٰئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ، وَكَانَ اللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً ﴾

« صدق الله العظيم »

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذى بذكره تطمئن القلوب ، وبالرجوع إليه تمحى الذنوب ، وبتحميده يسعد كل مَن تاب وأناب ، وباسمه ينتعم أهل النعيم فى دار الثواب .

وصلى الله على سيدنا محمد ، وعلى آله وصحبه وسلم .. صلاة تمهد لنا عند الله زلفى وحسن مآب .

التوبة

التوبة أول منازل السالكين ، وأصل مقامات الطالبين ، وهى السبيل إلى الفلاح والفوز بمرضاة الله تعالى ، ولها الأثر العظيم فى علاقة الإنسان بربه ، وفى علاقته بأخيه الإنسان .

كما أن لها الأثر البالغ فى تهذيب النفوس وتقويم المعوج من الأخلاق والسلوك .

* * *

الذنوب

والتوبة إنما تكون من ذنب ارتكبه الإنسان مع ربه ، أو سيئة اقترفها مع أخيه الإنسان ، ولذا كان من الواجب أن نُقدِّم بين يدى كلامنا عن التوبة كلمة عن الذنوب .

وكلامنا عليها يدور حول ناحيتين :

الأولى : معنى الذنب .

الثانية : تقسيم الذنوب .

● معنى الذنب :

الذنب مخالفة أمر الله فى فعل أو ترك ، فإذا فعل الإنسان ما نهى الله عنه أو ترك ما أمر الله به فقد أذنب .

فمَن شرب الخمر فقد أذنب ، لأن الله تعالى نهانا عن شربها فقال جَلَّ وعَزَّ : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِنَّمَا الخَمْرُ وَالمَيْسرُ وَالأنصَابُ وَالأَزْلاَمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ (١) .

---

(١) المائدة : ٩٠ .

ومَن أفطر فى رمضان بغير عذر فقد أذنب ، لأن اللّه تعالى أمرنا بصيامه فقال جَلّ شأنه : ﴿ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ﴾ (١) .

● تقسيم الذنوب :

تنقسم الذنوب إلى أقسام عديدة باعتبارات مختلفة نكتفى بثلاثة منها :

الأول : ذنوب ترجع إلى صفات الإنسان وأخلاقه .

الثانى : ذنوب ترجع إلى علاقة الإنسان بربه وبأخيه الإنسان .

الثالث : ذنوب ترجع إلى كونها صغائر أو كبائر وفواحش .

فأما القسم الأول وهو الذنوب التى ترجع إلى صفات الإنسان وأخلاقه فإنها تنقسم إلى أربعة أقسام :

١ - صفات بهيمية أو حيوانية مثل : الشره والحرص على الشهوات .

---

(١) البقرة : ١٨٥

٢ - صفات سبعية مثل : الغضب وحب الانتقام .

٣ - صفات شيطانية مثل : الخداع والبغى .

٤ - صفات ربوبية مثل : الكبْر والعز .

وهذه الأقسام الأربعة تضبط مثارات الذنوب عند الإنسان ضبطاً محكماً ، وتتدرج معه تبعاً لفطرته وغرائزه ، فتظهر الغرائز البهيمية أولاً ، ثم الصفات السبعية ، ثم إذا اجتمعا استعملا العقل فى الخداع والمكر وهى الصفة الشيطانية ، وبالعقل تتفوق الصفة الرابعة وهى الربوبية .

ومن هذه المثيرات التى هى منابع للذنوب تتفجر على الجوارح كالقلب واللسان والسمع والبصر وما إليها .

وأما القسم الثانى - وهو الذنوب التى ترجع إلى علاقة الإنسان بربه وبأخيه الإنسان - فإنها إن تعلقت بحق الله تعالى ولم تكن شركاً وكفراً كتأخير الصلاة عن وقتها كسلاً فالمغفرة فيها مرجوة ، قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ ﴾ (١) وإن

---

(١) النساء : ٤٨

تعلقت بحق العبد كقتل النفس التى حرَّم اللّه قتلها ، وغصب المال والقدح فى الأعراض فالأمر فيها أعظم وأغلظ ، إذ العفو موقوف على رضا العبد وقليلاً ما يرضى ، وقد جاء فى الخبر : « الدواوين ثلاثة : ديوان يُغفر ، وديوان لا يُغفر ، وديوان لا يُترك ، فالديوان الذى يُغفر ذنوب العباد بينهم وبين اللّه تعالى ، وأما الديوان الذى لا يُغفر فالشرك باللّه تعالى ، وأما الديوان الذى لا يترك فمظالم العباد » (١) .

ويقول ابن القيم : « إن ظلم العبد نفسه بينه وبين ربه عَزَّ وجَلَّ أخف الموازين وأسرعها محواً ، فإنه يمحى بالتوبة والاستغفار ، والحسنات الماحية ، والمصائب المُكَفِّرة ، ونحو ذلك بخلاف ديوان الشرك فإنه لا يُمحى إلا بالتوحيد ، وديوان المظالم فإنه لا يُمحى إلا بالخروج منها إلى أربابها واستحلالهم منها » (٢) .

---

(١) إحياء علوم الدين لحجة الإسلام الغزالى .

(٢) الوابل الصيب لابن قيم الجوزية ص ٢٦ ، ويراجع كتاب الإرشاد للإمام الجوينى ، ورياض الصالحين للنووى باب التوبة .

وذكر أبو بكر الوراق عن أبى حنيفة رحمه الله أنه قال : « أكثر ما يُنزع الإيمان من العبد عند الموت » ثم قال أبو بكر : « فنظرنا فى الذنوب التى تنزع الإيمان فلم نجد شيئاً أسرع نزعاً للإيمان من ظلم العباد » [1] .

وأما القسم الثالث - وهو الذنوب التى توصف بأنها صغائر أو كبائر - فإن الأمر يحتاج إلى تحديد معنى الكبيرة ، إذ معناها مثار خلاف بين العلماء ، ولذا فإنَّا نرى أن نلم بآرائهم موجزين الكلام فيها .

والعلماء فى ذلك على رأيين :

١ - رأى المنكرين أن يكون من الذنوب صغائر وكبائر ، وبعبارة أخرى هم يقولون : الذنوب كلها كبائر .

٢ - رأى القائلين بأن من الذنوب صغائر وكبائر .

وحُجَّة أصحاب الرأى الأول هى : أن الذنب مخالفة أمر الله تعالى ، وكل مخالفة لأمر الله تعالى ، فهى كبيرة .

---

(١) تفسير القرطبى .

وهو رأى لا يُقام له وزن ولا يُعتد به ، لأنه يتنافى مع العقل ، ويتجافى عن صريح القرآن والسُنَّة ، فاللّه تعالى يقول : ﴿ إِن تَجْتَنِبُواْ كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلاً كَرِيماً ﴾ (١) .

ويقول عزّ شأنه : ﴿ الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلاَّ اللَّمَمَ ﴾ (٢) .

ويقول الرسول الكريم صلوات اللّه عليه : « الصلوات الخمس ، والجمعة إلى الجمعة ، ورمضان إلى رمضان مُكَفِّرات ما بينهن إذا اجتنبت الكبائر » (٣) .

فالقرآن والسُنَّة صريحان فى أن الذنوب منها الصغائر ومنها الكبائر ، والآثار الواردة فى ذلك كثيرة مشهورة .

والعقل يعترف بأن بعض الذنوب قد يكون كبيرة إن صدر من فلان الذى يقتدى الناس به وينتهون عند رأيه ، وقد

---

(١) النساء : ٣١ (٢) النجم : ٣٢

(٣) رواه مسلم فى باب الطهارة عن أبى هريرة .

يكون صغيرة - نسبياً - إذا صدر من فلان الذى يُعَد من دهماء الناس ومن عامتهم ، وممن لا يؤخذ برأيه ولا يُعتَد بفعله . فالعقل والنقل يؤازر كل منهما الآخر فى الاعتراف بأن الذنوب منها الصغائر ومنها الكبائر .

فالذنب إذن قد يكون من الأمور النسبية يوصف تارة بأنه كبيرة وأخرى بأنه صغيرة ، وليس بنسبة واحدة عند جميع الناس ولا من جميع الناس .

والذين يعترفون بأن من الذنوب صغائر وكبائر اختلفوا فيما بينهم فى حد الكبيرة ومعناها على ثلاث طوائف :

(أ) طائفة ترى تحديدها بالعد (وهم أهل الآثار) .

(ب) طائفة ترى ضبطها بأمر كلى .

(جـ) طائفة ترى عدم ضبطها لا بالعد ولا بأمر كلى .

(أ) والطائفة الأولى : تبنى رأيها على ما روى فى ذلك من الآثار عن بعض الصحابة رضوان الله عليهم ، فقد روى عن ابن عمر أن الكبائر تسع وهى : الشرك بالله ، وقتل النفس بغير حق ، وقذف المحصنة ، والزنا ، والفرار

من الزحف ، والسحر ، وأكل مال اليتيم ، وعقوق الوالدين المسلمين ، والإلحاد فى الحرم .

وعن أبى هريرة رضى اللّه عنه أنها عشر بزيادة : أكل الربا .

وفى رواية لعلىّ كرّم اللّه وجهه أنها اثنتا عشرة : العشرة السابقة والسرقة وشرب الخمر .

(ب) والطائفة الثانية اختلفوا فيما بينهم أيضاً .

١ - فقالت فرقة منهم : إن الكبيرة ما وردت بها الآثار السابقة وما يكون على مثالها مما تكون مفسدته مثل مفسدة شئ منها أو أربى كشهادة الزور مثلاً إذ قد يترتب عليها من المفاسد والإضرار بالغير أكثر مما يترتب على بعض الكبائر التى وردت فى هذه الآثار السابقة .

٢ - وقالت طائفة أخرى : إن الكبيرة هى كل ما أوعد اللّه عليه بالنار كالقتل العمد ، قال تعالى : ﴿ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِناً مُتَعَمِداً فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمَ خَالِداً فِيهَا ﴾ (١) .

---

(١) النساء : ٩٣

٣ – وقالت فرقة ثالثة : كل ما يجب به الحد فى الدنيا فهو كبيرة . كالزنا قال تعالى : ﴿ الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ ﴾ [١] .

وهذا الرأى رجَّحه الإمام الغزالى إذ يقول : « وأظن ظناً غالباً أن الصحابة كانوا يعدون كل ما يجب به الحد كبيرة » [٢] .

(جـ) ١ – وأما الطائفة الثالثة فمنها مَن يرى أن كل معصية أصرَّ عليها العبد فهى كبيرة ، وكل ما استغفر عنها فهى صغيرة .

فالصغيرة بالإصرار عليها تصير كبيرة ، والكبيرة بالاستغفار عنها تصير صغيرة .

وعلى هذا القول فكل ذنب صالح لأن يكون صغيرة أو كبيرة تبعاً للإصرار عليه أو عدمه .

٢ – ومنها مَن يرى أن الذنب من الأمور النسبية لا يُعرف بذاته ، فكل معصية يمكن أن توصف بأنها كبيرة بالإضافة

---

(١) النور : ٢ (٢) إحياء علوم الدين – باب « التوبة » .

إلى معصية أخرى دونها ، وبأنها صغيرة بالقياس إلى ما فوقها ، فقطع يد إنسان مثلاً كبيرة بالإضافة إلى ضربه ، صغيرة بالقياس إلى قتله .

وهذا الرأى رجّحه صاحب الكفاية إذ يقول : « الحق أنهما (أى الصغيرة والكبيرة) اسمان إضافيان لا يُعرفان بذاتهما ، فكل معصية إذا أضيفت إلى ما فوقها فهى صغيرة ، وإن أضيفت إلى ما تحتها فهى كبيرة » ، وهو رأى للإمام الغزالى أيضاً .

وعلى هذا فكل ذنب صالح لأن يكون صغيرة أو كبيرة بالإضافة والاعتبار .

هذا موجز آراء العلماء فى هذه المسألة ، ولعل الرأى الذى يضبطها بأنها كل ما توعّد عليه الشرع بخصوصه هو أرجح الآراء .

ومع ذلك فإنّا لا نستطيع أن نجحد أن هناك ذنوباً لا مجال للتردد فى أنها كبائر باتفاق وفى كل الحالات ومن جميع الناس كالقتل العمد وعقوق الوالدين .

ولعل هذا الاختلاف وعدم تحديد معنى الكبيرة تحديداً

جامعاً مانعاً ، هو الذى حمل مثل الإمام الواحدى على القول « بأن الكبيرة ليس لها حد يعرفها العباد به ، وإلا لاقتحم الناس الصغائر واستباحوها ، فأخفى الله تعالى ذلك عن العباد ليجتهدوا فى اجتناب المنهى عنه رجاء أن يجتنبوا الكبائر ، ونظير ذلك إخفاء الصلاة الوسطى وليلة القدر » .

هذا والبحث فى الذنوب من حيث كونها صغائر أو كبائر يثير فى نفوسنا أن نسأل :

• هل صغائر الذنوب تعظم فتصير كبائر ؟

والجواب نعم ، فصغائر الذنوب لا تظل صغائر دائماً وفى كل الحالات ولكنها قد تعظم فتصير كبائر . ويكون ذلك بأمور منها :

١ - الإصرار عليها والمداومة على ارتكابها ، ومن ثَمَّ قيل : لا صغيرة مع إصرار ، ولا كبيرة مع استغفار .

٢ - السرور بها واعتداد التمكن منها نعمة .

٣ - التهاون بستر الله وحلمه وإمهاله ، روى أحمد والطبرانى والبيهقى فى شُعَب الإيمان من حديث عقبة بن عامر مرفوعاً : « إذا رأيتَ الله تعالى يعطى العبد فى الدنيا

وهو مقيم على معاصيه فإنما هو استدراج ، ثم تلا رسول الله ﷺ : ﴿ فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُواْ بِمَا أُوتُواْ أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴾ (١) .

٤ - أن يكون المذنب ممن يقتدى به ، وينتهى الناس عند رأيه ، فقد ورد أن : « مَن سنَّ سُنَّة سيئة فعلية وزرها ووزر مَن عمل بها إلى يوم القيامة » وقال تعالى : ﴿ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُواْ وَآثَارَهُمْ ﴾ (٢) . فخطيئة العالم والقدوة بلقاء مشهورة ، إذ لو كان ذنبه مقصوراً عليه وحده لهان الخَطْب وسهل الأمر ، ولكن جرمه عظيم باتباع الناس له واقتدائهم بفعله ، فعن ابن عباس رضى الله عنهما : « ويل للعالِم من الأتباع ، يزل زلّة فيرجع عنها ، ويحملها الناس فيذهبون بها فى الآفاق ، فطوبى لمن إذا مات ماتت ذنوبه معه ».

٥ - الاستهانة بصغائر الذنوب وتهوينها على نفسه قال

---

(١) تفسير الآلوسى - والآية من سورة الأنعام : ٤٤

(٢) يس : ١٢

صلى الله عليه وسلم : « لعن الله السارق يسرق البيضة فتُقطع يده » وذلك لأنه يتدرج من ذلك إلى شئ أكبر وأكبر حى يصير مستحقاً لقطع يده [1] .

سأل عمر بن الخطاب رضى الله عنه أُبّياً عن التقوى فقال : هل أخذتَ طريقاً ذا شوك ؟ قال : نعم . قال : ما عملتَ فيه ؟ قال : تشمرتُ وحذرت ، قال : فذاك التقوى ، وأخذ هذا المعنى ابن المعتز فنظمه :

خـــل الذنـــوب صغيرها وكبيـــرها ذاك التُقـــى
واصنـــع كمـــاشٍ فوق أر ض الشـوك يحذر ما يرى
لا تحقـــــرن صغيــــرة إن الجبال من الحصى [2]

ولما كانت التوبة ندم يعقبه العزم على إصلاح ما فسد ، وعلى فعل المُستحَب من العمل وكان الندم على الذنب أساساً لقبول التوبة منه ، كان حقاً علينا أن نُقدّم بين يدى التوبة كلمة عن الندم فنقول :

---

(١) النبراوى على الأربعين النووية .

(٢) تفسير القرطبى جـ ١ ص ١٦٢

الندم

إذا أقدم المرء على خطيئة أو ارتكب جريمة ففكر فيها فشعر بألم نفسى لتلك الجريمة ، وبوخز الضمير لما ترتب على هذه الخطيئة من نتائج وآثار فذلك الألم النفسى هو الندم أو تأنيب الضمير كما يسميه المحدَثون من علماء الأخلاق .

● الندم الحقيقى هو أساس التوبة المقبولة :

إذا صدر الندم بعد تدبر للذنب ، ومعرفة بالخطيئة ، واعتراف بها فإنه حينئذ يكون الخطوة الحقيقية للتوبة المقبولة.

ولعمرى إذا لم يعترف الإنسان بذنبه لا يمكن أن يندم ندماً صحيحاً ، وإذا لم يندم لا يمكن أن يتوب ، وعم يتوب إذا لم يعترف بأنه قد ارتكب إثماً ، واقترف ذنباً ؟

ولعل مغالطة الإنسان نفسه فى أنه قد ارتكب إثماً ، وتلكؤه فى الاعتراف بخطيئته مما يفسر لنا أن توبة كثير من الناس لا تبلغ غايتها ولا تؤتى ثمرتها .

وفى الحق إن الاعتراف بغير توبة أفضل من التوبة بغير اعتراف ، قال رسول الله ﷺ : « الندم توبة » (١) .

وفى قصة آدم وخروجه من الجنة بذنبه : « ..... يا آدم ، أنين المذنبين أحب إلينا من تسبيح المدلين » (٢) .

وروى عن بعض السلف أنه قال : « ضاحك معترف بذنبه خير من باك مدل على ربه ، وباك نادم على ذنبه خير من ضاحك معترف بلهوه » (٣) .

وروى عن النبى ﷺ أنه قال : « الندم توبة » .

---

(١) أخرجه ابن ماجه فى الزهد عن هشام بن عمار ، وكذلك رواه الطبرانى فى معجمه الكبير وأبو نعيم فى الحلية . وراجع الإرشاد لإمام الحرمين الجوينى فى باب « التوبة » .

(٢) مدارج السالكين لابن القيم ص ١٦٧ ، وقريب منه فى تفسير الآلوسى عند قوله تعالى : ﴿ تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ ﴾ . (القدر : ٤)

(٣) أدب الدنيا والدين ص ٨١

وفلاسفة الغرب يقولون فى أمثالهم : « الاعتراف نصف الموقعة » .. يعنون الموقعة النفسية التي تنشب بين المرء ونفسه فى محاولة إصلاحها [١] .

* * *

● علامة الندم :

وكلما طالت الحسرة والحزن ، وكثر التفكير فى الذنب والخوف من الله تعالى كان ذلك علامة الندم الصحيح ، وكلما كان تألمه أشد كان تكفير الذنوب به أرجى ، فإن تمكنت مرارة الذنوب فى القلب بدل حلاوتها فاستبدل بالميل إلى الذنوب كراهية وبالرغبة فيها رغبة عنها ، وتطلعت نفسه إلى طلب مرضاة الله فقد وجد الندم الصحيح الموصل للتوبة المقبولة .

ولا يجوز أن يكون ترك المعصية من غير ندم عليها توبة « فإن الماجن إذا مَلَّ مجونه ، واستروح إلى بعض المباحات

---

(١) مذكرات الأخلاق للأستاذ الكبير الدكتور مهدى علام .

غير نادم على فارط الزلات وكان على عزم معاودتها فهذا يسمى تاركاً للزلة ولايسمى تائباً عنها »[1] .

ولا بد أن يكون نادماً على ما فات من رعاية حقوق الله تعالى : « فإن مَن قارف سيئة وندم عليها لإضرارها به وانتهاكها قواه فهو نادم غير تائب ، وإنما التوبة الشرعية الندم على ما فات من رعاية حقوق الله تعالى »[2] .

يقول الفخر الرازى : « واعلم أن التوبة إنما تحصل عند حصول أمور أربعة .. أولها : احتراق القلب فى الحال على صدور تلك المعصية عنه ، وثانيها : ندمه على ما مضى ، وثالثها : عزمه على الترك فى المستقبل ، ورابعها : أن يكون الحامل له على هذه الأمور الثلاثة طلب رضوان الله تعالى وعبوديته ، فإن كان غرضه منها دفع مذمة الناس وتحصيل مدحهم ، أو سائر الأغراض فهو ليس من التائبين »[3] .

* * *

---

(١) الإرشاد للإمام الجوينى ص ٤٠٢ - ٤٠٣ (٢) المصدر السابق .

(٣) راجع تفسيره لقوله تعالى : ﴿ التَّائِبُونَ العَابِدُونَ ﴾ .... الآية (التوبة : ١١٢) .

● المبادرة إلى الندم واجبة :

والتندم على ما فرط والتحسر عليه أمر واجب دعا إليه العقل ، وأمر به الشرع ، فالعقل إذا فرّط فى أمر أو فعل ما لا ينبغى – تحت تأثير أمر ما – فسرعان ما يبادر بتدارك ما فات ، وتلافى ما فرط ، والله تعالى يقول : ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُواْ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُواْ اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَى مَا فَعَلُواْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ * أُوْلَئِكَ جَزَاؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ، وَنِعْمَ أَجْرُ العَامِلِينَ ﴾ (١) .

أما أولئك الذين لا يندمون ، أو يُسوِّفون ويصلون السيئة بالسيئة حتى يأخذهم الموت وهم لا يشعرون ، فإنهم قوم ألغوا عقولهم ، وأبوا أن يأخذوا نصيبهم من رحمة الله وغفرانه .

على أن بعض الناس قد يقل الإحساس عندهم أو يتبلد

---

(١) آل عمران : ١٣٥ – ١٣٦

شعورهم بالألم والندم من كثرة ما اقترفوا من ذنوب ، واجترحوا من آثام ، كالذين اعتادوا الإجرام فأصبحوا لا يبالون بما يقترفون ، ولا يكترثون بما يجترحون ، وهؤلاء قلّما يندمون ، وبالتالى قلّما يفكرون فى التوبة . وأمثال أولئك هم الذين عناهم الشاعر الحكيم حين قال :

أَبُنَىَّ إنَّ مـــن الرجـــال بهيمة
في صورة الرجل السميع المبصر
فطـــن بكل مصـــيبة فى ماله
وإذ يصـــاب بدينه لم يشعر [1]

*   *   *

● أثر الندم فى تقويم السلوك :

وللندم الصحيح أثر عظيم فى تغيير سلوك الإنسان من سيئ إلى حسن ، وذلك أنه يُعَظِّم الخطيئة لدى فاعلها ، ويستحضر ما ترتب عليها من مغبات وآثام ، ويصورُ

---

(١) أدب الدنيا والدين ص ٧٦

ما سيترتب عليها من أسوأ الآثار ، وكثيراً ما ترتبك حاله وتضطرب أعصابه ، وينقبض صدره ، فلا يرى ملطفاً لحالته إلا أن يتوب ، فالندم الصحيح مانع من مقارفة الذنب والإقدام عليه مرة أخرى (١) ، وربما كان ندمه على ذنبه هذا حاملاً له على ترك ذنب آخر يقترفه فعلاً .

وإذا سلك هذا المسلك المرضى فقد قوى الأمل فى إصلاحه ، وغدا بغيضاً لديه إقتراف الذنوب ، والانحراف عن الجادة والصراط المستقيم ، وبذلك يصل إلى حيث يريد أن يرى نفسه . قال تعالى : ﴿ فَمَن تَابَ من بَعْدِ ظُلْمه وَأَصْلَحَ فَإنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ ، إنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (٢) .

* * *

- **الندم قد لا يجدى إجداءً عملياً :**

على أن الندم أحياناً قد لا يُجدى إجداءً عملياً من حيث الأمر الذى وقع والذى من أجله يندم النادم ، فماذا يجدى

---

(١) المصدر السابق ص ٧٤ (٢) المائدة : ٣٩

ندم القاتل بالنسبة إلى المقتول ؟ أيستطيع أن يُعيد إليه حياته ؟ كلا ليس هناك سبيل إلى تدارك الماضى وإصلاحه ، ولكن هذا لا يمنع الجانى من أن يندم ، وأن يكون ندمه عميقاً يتكافأ مع فداحة الخطيئة التى أخطأها .

نعم لا يستطيع القاتل أن يُعيد إلى القتيل حياته ، ولا أن يُعوِّضه من تلك الحياة شيئاً كائناً ما كان ، فهذا سبيل قد أوصِد بابه فى وجهه تمام الإيصاد ، فقد سبق السيف العزل .

ولكن هذه الاستحالة نفسها قد تكون من أكبر الدوافع لشدة الألم ، وعمق الندم ، فإذا انبثق فى نفسه نور الهدى ، واشتعلت نار العزيمة ، عزيمة أن يُغيِّر من تلك النفس الشريرة ، وأن يعترف بحق الحياة لغيره ، وألا يسلك فى المستقبل مسلكاً يكون من شأنه أن يوقعه ثانية فيما وقع فيه أولاً فهو تائب من غير شك على شرط ألا يكون فى نيّته أن يعود ، وإلا كان هازئاً مستهزئاً . قال تعالى : ﴿ إلاَّ مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالحاً فَأُوْلَئكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ ، وكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَّحِيمَاً ﴾ (١) .

---

(١) الفرقان : ٧٠ .

ويصـــــون توبتـــــه ويــ   ــترك غير ذلك لا يصونه
وأحـــق ما صــــان الفتى   ورعــــى أمانتـــــه ودينه

*   *   *

● قد يحدث الندم حتى مع عدم تحقق الجريمة فعلاً :

ولقد يحدث الندم الموصل للتوبة حتى مع عدم تحقق الجريمة فعلاً ، هَبْ شخصاً كان قد اعتزم أن يفعل ما يضر بالعامة ، ويُغضب الله تعالى كأن يقتل ، أو يسرق ، أو يشهد شهادة زور ليلقى بها متهماً بريئاً فى أعماق السجون ، وهَبْه مرض يوم اعتزم تنفيذ رغبته الخاطئة الآثمة فلم يستطع تنفيذها ، ثم فكَّر فى الأمر ملياً فأدرك خطورة الموقف ، وفظاعة الجريمة التى كان سينزلها بإنسان مظلوم غافل ، ومقدار النقمة التى كان سيستنزلها من الله بعمله هذا فحمدَ الله على هذا المرض الذى عاقه عن القيام بذلك العمل الذميم ،

وشكرَ ذلك الظرف الذى جعل تنفيذ جريمته غير ممكن ، والذى نجاه من هوة سحيقة كان على وشك أن يهوى إليها .

إذا اتعظ بكل ذلك وأقام حول أفكاره سوراً منيعاً يمنع سئ الرغبات أن تتسرب إليها وألجم شهواته ، وكبح جماحها ، وأصبح لا يرحب بفكرة لا يقرها ضميره ، ولا يرضاها دينه فقد تاب ذلك الشخص وأناب [1] .



---

(١) مذكرات الأخلاق للأستاذ الكبير الدكتور مهدى علام .

التوبة

اتضح مما قلناه فى الندم أن عين التائب ترنو بحسرة إلى ذلك الماضى الذى لم يعد فى قُدرة البَشر تغييره ، وأن عين التائب تتطلع إلى المستقبل يدفعها الأسف على ما مضى ويجذبها الأمل فى إصلاح ما تبقى .

فالتوبة إذن ندم صحيح يورث عزماً يُغيِّر سلوك المرء من سئ إلى حسن ، ويُحوِّل حياته المذنبة الآثمة إلى حياة طيبة صالحة .

● وجوبها :

والتوبة واجبة على كل مذنب يخشى الله واليوم الآخر ، ووجوبها عن طريق الأخبار والآثار واضح جلى ، فالآيات والآحاديث فى ذلك كثيرة متضافرة .

قال الله تعالى : ﴿ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ [1] .. فقسَّم القرآن الناسَ إلى تائب وظالم ،

---

(١) الحجرات : ١١

وما ثمَّ قسم ثالث ألبتة ، وجعل مَن لم يتب ظالماً - وهو ظالم حقاً - لجهله بربه وآفات نفسه .

وقال تبارك اسمه : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ تُوبُواْ إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحاً عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ ﴾ (١) .

فجعل سبحانه رجاء تكفير الذنوب مرهوناً بالتوبة النصوح الخالصة لله الخالية من الشوائب .

وقال صلى الله عليه وسلم : « اتقِ الله حيثما كنت وأتبع السيئة الحسنة تمحها » (٢) .

وعنه عليه الصلاة والسلام : « أقلعوا عن المعاصي قبل أن يأخذكم الله فيدعكم هتاً بتاً » (٣) .

على أن وجوب التوبة لمن شرح الله صدره بنور الإيمان أوضح وأظهر ، إذ هو لشدة نور باطنه يجتزئ بأدنى بيان ويتنبه بأدنى إشارة .

---

(١) التحريم : ٨ (٢) رواه الترمذى .

(٣) أدب الدنيا والدين ص ٧٩ . والهت : الكسر ، والبت : القطع .

قال حماد بن زيد : عجبتُ لمن يحتمى من الأطعمة لضَّراتها ، كيف لا يحتمى من الذنوب لمعرَّاتها (١) ؛

وقيل للفضيل بن عياض رحمه الله : ما أعجب الأشياء ؟ فقال : قلب عرف الله عَزَّ وجَلَّ ثم عصاه (٢) .

وهكذا يكون الإيمان الحاصل عن نور البصيرة وشدة الحب فى ذات الله .

أولئك قوم آثروا طاعة الله على مجارات الشيطان ، أشرقت بصائرهم فعرفوا للتوبة منزلتها فسارعوا إليها فلا غرو أن كانوا أولياء الله وأحباءه ، وفى مثلهم يقول الله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ ﴾ (٣) .

وفيهم يقول الرسول ﷺ : « التائب حبيب الله » ، و « التائب من الذنب كمن لا ذنب له » (٤) .

* * *

---

(١) أدب الدنيا والدين ص ٧٩

(٢) المصدر السابق ص ٧٩ (٣) البقرة : ٢٢٢

(٤) إحياء علوم الدين - للغزالى جـ ٤ ص ٤

● وجوبها على الفور :

تبيَّن مما تقدَّم أن التوبة واجبة مطلوبة ، لكن بقى علينا أن نعرف أهذا الواجب على الفور أم أنه ممدود موسَّع فيه ؟

ونحن إذا لاحظنا ما قدَّمناه سهل علينا أن نقول : إن هذا الوجوب على الفور ، لأن المعاصى للإيمان كالمأكولات المضرة للأبدان لا تزال تتجمع وتتعفن وسرعان ما تودى بالإنسان إن لم يسارع إلى تطهير نفسه من ضررها ، فإذا كان الخائف من الهلاك فى الدنيا يجب عليه ترك ما يضره من المأكولات فى كل حال وعلى الفور ، فالخائف من هلاك الأبد أولى بأن يجب عليه ذلك .

قال الله تعالى : ﴿ وَسَارِعُواْ إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ (١) .

وقال عزَّ من قائل : ﴿ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِى نُفُوسِكُمْ ، إِن تَكُونُواْ صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلأَوَّابِينَ غَفُوراً ﴾ (٢) ، والأوَّاب هو الذى إذا أذنب ذنباً بادر إلى التوبة .

---

(١) آل عمران : ١٣٣ — (٢) الإسراء : ٢٥

وقال جلّ شأنه : ﴿ إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُولَٰئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ، وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا * وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ ، أُولَٰئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ (١) .

أما هؤلاء الذين يتوانون ويصلون السيئة بالسيئة حتى يأخذهم الموت وهم لا يشعرون فليس لهم من رحمة الله ومغفرته نصيب (٢) .

روى عن علىّ كرّم الله وجهه أنه قال : « لا تكن ممن يرجو الآخرة بغير عمل ، ويؤخر التوبة لطول الأمل » (٣) .

وقال لقمان لابنه : « يا بُنّى ، لا تؤخر التوبة فإن الموت يأتى بغتة » (٤) .

---

(١) النساء : ١٧ - ١٨

(٢) مذكرات الأخلاق للأستاذ الدكتور مهدى علام .

(٣) أدب الدنيا والدين ص ٨٣

(٤) إحياء علوم الدين للغزالى - باب « التوبة » .

وقال محمد بن يزدان : دخلتُ على المأمون وكنتُ يومئذ وزيره فرأيته قائماً وبيده رقعة فقال : يا محمد ، أقرأت ما فيها ؟ فقلت : هى بيد أمير المؤمنين ، فرمى إلىَّ بها فإذا فيها مكتوب :

إنك فى دار لها مدة يُقبَل فيها عمل العامل
أما ترى الموت محيطاً بها يقطع فيها أمل الآمل
تعجل بالذهاب لما تشتهى وتأمل التوبة من قابل
والموت يأتى بعد ذا بغتة ما ذاك فعل الحازم العاقل (١)

* * *

● عموم التوبة فى الأشخاص والأحوال :

وكما أن التوبة واجبة على الفور فهى كذلك عامة لجميع الأشخاص وفى جميع الأحوال .

أما عمومها لجميع الأشخاص فظاهر جلى أمر به الشرع

(١) أدب الدنيا والدين ص ٨٤ - ٨٥

وارتآه العقل ، وحسبنا أن نذكر قوله تعالى : ﴿ وَأَنِ اسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُواْ إِلَيْهِ ﴾ (١) .

وقوله عَزَّ وجَلَّ : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ تُوبُواْ إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحاً ﴾ (٢) .

وقوله سبحانه : ﴿ وَتُوبُواْ إِلَى اللَّهِ جَمِيعاً أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ (٣) .. فعمَّم الخطاب ورتَّب رجاء الفلاح على التوبة .

وقال صلى اللَّه عليه وسلم : « يا أيها الذين آمنوا توبوا إلى اللَّه واستغفروه فإنى أتوب إلى اللَّه فى اليوم مائة مرة » (٤) .

والعقل بعد أن يتدبر معنى التوبة ويعرف أنها الرجوع عن الطريق المبعدة عن اللَّه تعالى يحتم ذلك ، فالإنسان من حيث هو عاقل يتجافى عن الطريق المبعدة ، وينأى عن المفازة المهلكة ، وهنا يسير البحث الخُلُقى الدينى مع أبحاث علم النفس جنباً إلى جنب ، فإذا تأملنا الإنسان من [illegible]

---

(١) هود : ٣
(٢) التحريم : ٨
(٣) النور : ٣١
(٤) رواه مسلم .

نجد أن غرائزه هي الحاكمة المسيطرة والمتسلطة والآمرة تقوده إلى ما تحبه النفس وتهواه . ويتوالى الأيام والدأب على فعل ما تميل إليه النفس تتكوّن العادات ثم يأخذ العقل في الظهور رويداً رويداً فيجد أمامه كثيراً من العادات المتحكمة والميول المتسلطة التى ألفتها النفس واعتادتها وهى فى غير الاتجاه الصحيح الذى يريده العقل فيأخذ فى تقويمها وتعديلها .

وهنا تنشأ معركة بين العقل والهوى ، فأيهما تغلب قهر صاحبه واحتل مناطقه وأزعجه عن مألوفه ، فإن لم يقو العقل ولم يكمل فازت الشهوات وظهر الهوى وتحفز الشيطان وهو يردد : ﴿ لأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلاَّ قَلِيلاً ﴾ (١) ، وإن كمل العقل وقوى أخذ فى قمع الشهوات ومفارقة سئ العادات ورد الطبع على سبيل القهر إلى طاعة الله .

ولا معنى للتوبة إلا الرجوع عن طريق دليله الشيطان إلى طريق الله تعالى .

---

(١) الإسراء : ٦٢

وأما عمومها على كل حال فهو أن كل بَشر لا يخلو عن معصية بجوارحه أو بخواطره المذهلة عن ذكر اللّه تعالى ، حتى فى أعلى مراتب البَشر لا يخلو أحد منهم عن غفلة أو قصور فى العلم باللّه وصفاته وأفعاله وكل ذلك نقص ، ولا يُتصور بحال خلو البَشر عن هذا النقص ، وإنما يتفاوتون حسب درجاتهم وطاعتهم وقُربهم من اللّه ، وأما أصل النقص فلا بد منه .

وإذا كان رسول اللّه صلوات اللّه عليه - وهو خير البَشر عامة - يقول : « إنه ليُغان (ليغطى) على قلبى وإنى لأستغفر اللّه فى اليوم مائة مرة » [1] ، فكيف بمن هو دونه منزلة ؟ إنه أولى بأن يحصل منه ذلك .

ومن ثَمَّ كرَّمه اللّه تعالى فغفر له ذنوبه ما تقدَّم منها وما تأخر قال تعالى : ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُّبِيناً * لِّيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ ... ﴾ [2] .

---

(١) رواه مسلم ، وأورده الغزالى فى إحياء علوم الدين - باب التوبة .

(٢) الفتح : ١ - ٢

فظاهر الآية يُصرِّح بأن له ذنوباً ولكن اللّه تعالى كرَّمه بغفرانها والصفح عنها .

* * *

● سؤال يرد بالخاطر :

وهنا يرد بالخاطر سؤال وهو : هل تصح التوبة من ذنب مع الإصرار على ذنب آخر ؟

والإجابة على هذا السؤال لها اعتبارها وقيمتها فى نفس السائل وفى نفس غيره ، فربما كانت الإجابة عنها تنير السبيل أمام كثير من المذنبين وتطمعهم فى رحمة اللّه تعالى وغفرانه .

وللإجابة عنه نقول : إن للعلماء فى ذلك آراء :

١ - فمنهم مَن قال : لا تصح التوبة إلا إذا أقلع الإنسان عن كل الذنوب وذلك لأن الذنوب مهما اختلفت وتنوعت فإنها ترجع إلى أمر واحد هو مخالفة أمر اللّه تعالى ، فإذا تاب المرء فإنما يفئ إلى أمر اللّه ، فمَن تاب من بعض الذنوب وأصرَّ على بعض آخر فقد ناقض نفسه ، وكأنه يقول : أنا لا أخالف أمر اللّه ، أنا أخالف أمر اللّه !!

ولكن هذا الرأى فيه عُسر ومشقة ولا يستطيعه معظم الناس ، إذ فيه من الحَرج ما لا يخفى ، والله تعالى يقول : ﴿ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ﴾ (١) .

هذا إلى أن فيه قصر التوبة على أفراد قليلين ، وهذا بعيد عن فضل الله ورحمته بعباده وهو القائل : ﴿ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ (٢) .

٢ - ومنهم مَن قال : تصح التوبة من الذنب مع الإصرار على آخر ولو كان من نوعه .

وهذا الرأى أيضاً بعيد عن غرض التوبة ، وإلا فما قيمة التوبة عن شرب الخمر مثلاً مع الإصرار على تعاطى المواد المخدرة المهلكة ؟!

٣ - والرأى السديد الذى نرتضيه وبه قال كثير من العلماء هو : أن التوبة لا تصح من ذنب مع الإصرار على آخر من نوعه . وأما التوبة من ذنب مع مقارفة آخر لا تعلق

---

(١) الحج : ٧٨ (٢) الأعراف : ١٥٦

له به ، ولا هو من نوعه فتصح كما إذا تاب من أكل الربا ولم يتب من شرب الخمر ، فإن توبته من الربا صحيحة .

قال النووى : « يجب أن يتوب من جميع الذنوب فإن تاب من بعضها صحَّت توبته عند أهل الحق من ذلك الذنب وبقى عليه الباقى » [1] .

* * *

● توبة العائد للذنب :

والإجابة عن السؤال السابق تذكرنا بسؤال آخر وهو: ما مصير توبة مَن تاب ثم عاود الذنب ؟

ونترك لإمام الحرمين الإجابة عن ذلك . يقول : « مَن تاب وصحَّت توبته ثم عاود الذنب فالتوبة الماضية صحيحة ، والغرض مما ذكرناه أن تعلموا أن التوبة عبادة من العبادات يقضى بصحتها وفسادها ، فإذا سيقت على شرائطها لم

---

(١) رياض الصالحين للنووى - باب « التوبة » ، وراجع مدارج السالكين لابن القيم ص ١٥٢ ، والإرشاد للإمام الجوينى باب « التوبة »

يقدح فى صحتها ما يقع بعد مضيها وعلى معاود الذنب تجديد التوبة . ثم هذه التوبة عبادة أخرى سوى التى ذكرناها »[1] .

* * *

● آخر وقت لقبول التوبة :

يقبل الله توبة عبده ما لم يغرغر ، أما إذا ما دنا أجل الإنسان ، وحضره الموت فلا توبة ، قال الله تعالى : ﴿ وَلَيْسَت التَّوْبَةُ للَّذينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَات حَتَّى إذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ المَوْتُ قَالَ إنِّى تُبْتُ الآنَ وَلاَ الَّذينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ ، أُولَئكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَاباً أَليماً ﴾[2] .

وعن ابن عمر رضى الله عنهما : « إن الله يقبل توبة العبد ما لم يغرغر »[3] .

والسر فى هذا التشريع الحكيم هو أن التوبة الصادقة التى تذهب بالخطيئة يجب أن تكون قبل الموت حتى يكون

---

(١) راجع الإرشاد للجوينى - باب « التوبة » .

(٢) النساء : ١٨

(٣) أخرجه الترمذى فى الدعوات وابن ماجه فى الزهد .

هناك متسع من الزمن يُظهر فيه التائب استعداده لتعديل مجرى حياته الخاطئة ، ويُحوِّل فيه ذلك المجرى فعلاً حتى يكون استعداده الأول قد استؤصل تماماً ، فيكون غفران الذنوب له معقولاً حكيماً [(١)] .



● التوبة الصحيحة مقبولة لا محالة :

عرفنا حقيقة التوبة وتبيَّن لنا فضلها ووجوبها ، ولكن النفس توَّاقة لأن تطمئن متطلعة لأن تعرف مآل توبتها ، وكأن هامساً يهمس قائلاً : ما علامة التوبة الصحيحة ؟ وهل إذا صحَّت تكون مقبولة ؟

وإنَّا نختم بحثنا فى التوبة بالإجابة عن هذين السؤالين ، ونطمئن هذه النفس القلقة فنقول : نعم للتوبة الصحيحة علامات وأمارات تدل على قبولها ، منها :

١ - أن يكف عما كان يقدم عليه من ذنوب [(٢)] .

---

(١) من مذكرات الأخلاق للأستاذ الدكتور مهدى علام .

(٢) أدب الدنيا والدين ص ٧٤

٢ - ألا يزال الخوف من الذنب مصاحباً له .

٣ - أنه كلما تذكر ذنبه انخلع قلبه ، وتقطع ندماً وخوفاً على قدر عظم الجناية وصغرها [1] .

٤ - أن يكون بعد التوبة خيراً منه قبلها .

وإذا صحَّت التوبة فهى مقبولة لا محالة ، وذلك أن كل مولود يولد على الفِطرة والقلب خُلِق فى الأصل سليماً ، وإنما تفوته السلامة بكدورة ترهقه من غبرة الذنوب وظلمتها .

ونار الندم تحرق تلك الغبرة ، ونور الحسنة يمحو عن صفحة القلب ظلمة السيئة ، وكما لا تستقر ظلمة الليل مع نور النهار فكذلك لا طاقة لظلام المعاصى مع نور الحسنات ، فحرقة الندم ، وسكب الدموع تغسل القلب وتطهره وتزكيه ، وكل قلب طاهر زكى فهو مقبول ، كما أن كل ثوب نظيف فهو مقبول .

فواجبنا إنما هو التزكية والتطهير ، وأما القبول فقد سبق

---

(١) مدارج السالكين ص ١٠ .

به القضاء ووعدنا به الله ووعده الحق حيث يقول : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ﴾ [1] ، ويقول سبحانه : ﴿ فَمَن تَابَ مِن بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ ، إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [2] .

فمَن يتوهم أن التوبة النصوح غير مقبولة كمَن يتوهم أن الشمس تطلع والظلام لا يزول ، والثوب يُغسل والوسخ لا يزول .

اللّهم إلا إذا تلبّس الوسخ وغاص فى تجاويف الثوب ، أو تراكمت الذنوب حتى رانت على القلوب ، لكن مثل هذا القلب لا يرجع ولا يتوب وإن كان يبدو منه كثيراً أن يقول - ولكن باللسان فقط - : تبتُ وندمتُ ، وهى توبة لا تُغنى من الذنوب فتيلاً .

ولأن التوبة الصحيحة مقبولة قال فقهاؤنا : إن مَن ارتكب ما يوجب الحد فتاب قبل ثبوته عليه سقط عنه الحد [3] .

---

(١) الشمس : ٩ (٢) المائدة : ٣٩

(٣) ابن عابدين جـ ٣ ص ١٩

هذا البيان وإن كان كافياً للنفوس المطمئنة وذوى البصائر المشرقة قد لا يكون كافياً لمن كثرت ذنوبهم وعظمت آثامهم، وتملك الخوف والوجل قلوبهم ، ولكننا نبث فيهم روح الأمل ، ونعضد جناحهم بذكر الآيات البيِّنات ، والآثار الشاهدة لقبول التوبة .

وإذا وافق العقل النقل فلا مجال للشك والريب .

ندعوهم لأن يستمعوا إلى قوله تعالى : ﴿ قُلْ يَا عِبَادِىَ الَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَى أَنفُسِهِمْ لاَ تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ ، إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً ، إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ * وَأَنِيبُواْ إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُواْ لَهُ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لاَ تُنصَرُونَ ﴾ (١) .

وإلى قوله سبحانه : ﴿ أَفَلاَ يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ ، وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (٢) .

وإلى قوله جلت قدرته : ﴿ وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً ثُمَّ اهْتَدَىٰ ﴾ (٣) .

---

(١) الزمر : ٥٣ - ٥٤ (٢) المائدة : ٧٤ (٣) طه : ٨٢

وإلى قوله تعالى : ﴿ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِى نُفُوسِكُمْ ، إِن تَكُونُواْ صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلأَوَّابِينَ غَفُوراً ﴾ (١) .

وأن يصيخوا إلى قوله صلى الله عليه وسلم : « إن الله تعالى يبسط يده بالليل ليتوب مسئ النهار ، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسئ الليل حتى تطلع الشمس من مغربها » (٢) .

وإلى قوله عليه الصلاة والسلام : « لله أفرح بتوبة عبده من أحدكم سقط على بعيره وقد أضلَّه فى أرض فلاة » (٣) .

وأن يستمعوا إلى ما روى من أن أنس رضى الله عنه قال : سمعتُ رسول الله ﷺ يقول : « قال الله تعالى : « يابن آدم ، إنك ما دعوتنى ورجوتنى غفرتُ لك على ما كان منك ولا أبالى . يابن آدم ، لو بلغت ذنوبك عنان السماء ثم استغفرتنى غفرتُ لك ولا أبالى . يابن آدم ، إنك لو أتيتنى بقراب الأرض خطايا ثم لقيتنى لا تُشرك بى شيئاً لأتيتك بقرابها مغفرة » (٤) .

---

(١) الإسراء : ٢٥

(٢) رواه مسلم فى التوبة عن محمد بن المثنى . (٣) متفق عليه .

(٤) رواه الترمذى فى الدعوات عن عبد الله بن إسحاق الجوهرى وقال : حديث حسن ، وراجع مدارج السالكين ص ١٦٧

وفى الحديث الإلهى العظيم حديث أبى ذر : « يا عبادى إنكم تخطئون بالليل والنهار ، وأنا أغفر الذنوب ، فمَن علم أنى ذو قدرة على المغفرة غفرتُ له ولا أبالى : ﴿ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَى أَنفُسِهِمْ لاَ تَقْنَطُواْ من رَّحْمَةَ اللَّه ، إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً ، إِنَّهُ هُوَ الغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ (١) ، ويا عبدى لا تعجز فمنك الدعاء وعلىَّ الإجابة ، ومنك الاستغفار وعلىَّ المغفرة ، ومنك التوبة وعلىَّ تبديل سيئاتك حسنات » (٢) .

وعن أبى هريرة رضى اللّه عنه أن رسول اللّه ﷺ قال : « قال اللّه عزَّ وجلَّ : أنا عند ظن عبدى بى ، وأنا معه حيث يذكرنى ، واللّه للّهُ أفرح بتوبة عبده من أحدكم يجد ضالته بالفلاة ، ومَن تقرَّب إلىَّ شبراً تقربتُ إليه ذراعاً ، ومَن تقرَّب إلىَّ ذراعاً تقربتُ إليه باعاً ، وإذا أقبلَ إلىَّ يمشى أقبلتُ إليه أهرول » (٣) .

---

(١) الزمر : ٥٣ (٢) مدارج السالكين ص ١٦٨

(٣) رواه البخارى ومسلم .

وعنه رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « لو أخطأتم حتى تبلغ خطاياكم السماء ثم تبتم لتاب عليكم » [١] .

* * *

وأخيراً ندعو أولئك الذين أسرفوا على أنفسهم حتى كادوا أن ييأسوا من رحمة الله ، ندعوهم لأن يتدبروا هذا الحديث العظيم الذى رواه أبو هريرة عن رسول الله ﷺ قال : « والذى نفسى بيده لو لم تذنبوا لذهب الله تعالى بكم ولجاء بقوم يذنبون فيستغفرون الله تعالى فيغفر لهم » [٢] .

وفى هذا المعنى يقول ابن المبارك :

أيضمن لى فتى ترك المعاصى وأرهنـــــه الكفـــالة بالخلاص
أطاع الله قـــوم فاستراحوا ولم يتجرعوا غصص المعاصى [١]

ربنا عليك توكلنا وإليك أنبنا وإليك المصير ..

ربنا فاغفر لنا ذنوبنا وكفّر عنا سيئاتنا وتوفنا مع الأبرار .

أبو زيد شلبى

الأستاذ المساعد بكلية الدراسات العربية

---

(١) رواه ابن ماجه فى الزهد .

(٢) رواه مسلم فى التوبة ، راجع رياض الصالحين كتاب الاستغفار .

(٣) أدب الدنيا والدين ص ٨ .

محتويات الكتاب

* * *

رقم الإيداع : ٢٨٤١ / ٨٨